

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿ قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ تَعَالَوْا إِلَى كَلِمَةٍ سَوَاءٍ بَيْنَنَا
وَبَيْنَكُمْ أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا اللَّهَ وَلَا نُشْرِكَ بِهِ شَيْئاً وَلَا يَتَّخِذَ
بَعْضُنَا بَعْضاً أَرْبَاباً مِّنْ دُونِ اللَّهِ ﴾ .

« صدق الله العظيم »

[آل عمران : الآية ٦٤]

موضوعنا هذه المرة هو حقيقة الإسلام وعلاقته بالأديان السماوية الأخرى .
والحقائق والأحكام والحكم تأتي - في الغالب - في القرآن الكريم مشورة نثراً
جيلاً وفي نظام يعلمه الله سبحانه ، وقد زعم بعض علماء السلف أنهم يعلمون
حكمة النسق القرآني ، وألفوا في ذلك كتباً واهية لا تقوم على برهان مقنع ، ومن
هؤلاء السيوطي وغيره ، وأنت لا تفيد شيئاً من قراءة هذه الكتب ، والأفضل
دائماً أن نقرأ القرآن كما أنزله الحق سبحانه ، وتوجه همك إلى الفهم والإدراك دون
الاستشراف إلى ما لا يمكن أن يكون لك أو لغيرك به علم ، لأن القرآن كلام الله
لا يقبل السفسطة ولا حديث الهباء الذي لا يتحصل من ورائه شيء .

ولكن أحياناً يأتي القرآن بنسق متصل من الآيات ، يستوفي قول الحق في
موضوع ما ، وذلك لتبينه على وجهه للرسول وأُمَّته من ورائه ، وذلك لا يمنع
من ورود نفس الحقائق منجمة في صور شتى وفي سُورٍ شتى ، في مقامات

يقتضيها سياق المعانى ، لأن القرآن لا يعرف التكرار في ألفاظه أو معانيه ولو بدت لنا متقاربة بل متطابقة ، ولكن العبرة في كل حال بالسياق والسياقات تعطينا معانى جديدة لنفس الحقائق .

ومن المواضيع التى يأتى فيها القرآن بنسق متصل من الآيات تستوفى موضوعاً واحداً مانجده في سورة آل عمران ابتداء من الآية التى جعلناها - والثى تليها - محوراً لهذا الحديث عن حقيقة الإسلام وعلاقته بالأديان السهاوية الأخرى .

والموضوع هنا خطير ، ولا يمكن إلقاء الكلام على عواهنه فيها .

ونحن إذ نكتب فيه لا نقصد إلى إقناع غير المسلم بأنه مخطىء ، وأن عليه أن يراجع نفسه ويعود إلى الحق ويدخل الإسلام ، لأن الهدى هدى الله ، وكلما كان الإنسان جاهلاً كان أشد تمسكاً بدينه ، لأنه ولد على هذا الدين ولا يعرف غيره ، وتعود على مدى حياته أن يأخذ ما قاله له أبواه أو القس الذى يتردد عليه قضية مسلمة ، على هذا نشأ وتعود ، وهو يجد الأمان والثقة والاطمئنان فيما تعود القول به ، فإذا كان يقول بأن المسيح عيسى ابن مريم عليه السلام ابن الله أو هو الله أو هو أبونا الذى فى السموات والأرض فهو لن يتحرك عن ذلك القول قيد أنملة مهما قلت له ، والقرآن يقرر هذه الحقيقة فى آيات من التى نحن بصددها وذلك حيث يقول ﴿ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا : لَيْسَ عَلَيْنَا فِي الْأُمِّيِّينَ سَبِيلٌ ﴾ [آل عمران ٣ / ٧٥] والأميون عند اليهود والنصارى فى القرون المسيحية الأولى: مصطلح كانوا يستعملونه فى الكلام عمس ليس على دينهم ، فالنصارى أميون فى نظر اليهود ، وكذلك اليهود فى نظر النصارى ، أما فى القرآن فلفظ أمى يستعمل بمعنيين :

الأولى : هو هذا الذى تكلمنا عنه فى معرض الكلام عن النصارى أو اليهود وفى الآية السابقة نجد النصارى واليهود يقولون إنه لا سبيل علينا من الأميين أى

أنا لا نصغى إلى ما يقول أولئك الذين ليسوا على ديننا ، والقرآن يستعمل هذا المصطلح في هذا المعنى في مقام التبكيت لأهل الكتاب - من اليهود خاصة - الذين كانوا يزعمون أن النبوة لا تكون إلا في أسباطهم أى قبائلهم الاثنى عشر لأن مَنْ عدا ذلك فأميون ، أى أقوام لا يختار الله منهم رسولاً ، والقرآن يقول لهم : ماذا تقولون الآن وقد شاءت إرادته أن يصطفى نبياً خارج الحدود التى وضعها لرحمة الله ، ومثال ذلك قوله تعالى في سورة الجمعة :

﴿ يَسْبِحُ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ الْمَلِكُ الْقُدُّوسُ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ . هُوَ الَّذِي بَعَثَ فِي الْأُمَمِينَ رَسُولًا رَسُولًا مِمَّنْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَإِنْ كَانُوا مِنْ قَبْلِ لَفِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ ﴾ .
[الجمعة ٦٢ / ١ - ٢] .

وأما المعنى الآخر الذى يستعمل فيه مصطلح أمى في القرآن المجيد فهو معنى خاص برسول الله ﷺ ، فإن إرادة الله لم تقف عند اصطفائه نبيه عند اختياره من غير الخط الذى حدده اليهود ، بل اختاره أمياً لا يقرأ لتوكيداً لمعنى حكمة الله في اختياره ، فقد كان عيسى ابن مريم في نظر اليهود أمياً لأنه نجم في غير أنساب الأسباط ، ولكنه كان يقرأ ويكتب ، وهنا يأتي محمد أمياً لا يقرأ ولا يكتب ، والله سبحانه علمه الكتاب والحكمة وكل شيء ، وقرأ هنا قول الله سبحانه في سورة الشورى : ﴿ وَكَذَلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ رُوحًا مِنْ أَمْرِنَا مَا كُنْتَ تَدْرِي مَا الْكِتَابُ وَلَا الْإِيمَانُ وَلَكِنْ جَعَلْنَاهُ نُورًا نَهْدِي بِهِ مَنْ نَشَاءُ مِنْ عِبَادِنَا وَإِنَّكَ لَتَهْدِي إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ ﴾ (الشورى ٤٢ / ٥٢) وتوكيداً لهذا المعنى القرآنى الخاص برسول الله ﷺ يقول تعالى في سورة العنكبوت :

﴿ وَمَا كُنْتَ تَتْلُو مِنْ قَبْلِهِ مِنْ كِتَابٍ وَلَا تَخُطُّهُ بِيَمِينِكَ إِذًا لِارْتَابِ الْمُبْطِلُونَ ﴾ (العنكبوت ٢٩ / ٤٨) .

وهما نفيهم حكمة الله في أمية نبيه . فإن المبطلين (أى أهل الباطل) لم

يدعوا طريقاً للتشكيك في نبوة محمد إلا سلكوه ، فهنا وتأكيداً لإرادته سبحانه في وضع رسالته حيث يشاء يضعها في رجل لم يكن يكتب ولا يقرأ ، وهذا كلام يقال لناس عرفوا الرسول قبل البعثة وبعدها ، وهو كان قبل البعثة تاجراً يتعامل مع الناس ، ولو كان قارئاً كاتباً لشهد بذلك واحد ممن عاملوه وما أكثرهم ، ولكننا على رغم اجتهاد الكفار في التماس السبيل على رسول الله لا نجد واحداً منهم يقول : لقد عاملته وهذا إيصال أو كتاب منه ، لأن الحججة هنا كانت تكون فاصلة .

ونعود إلى الآيات التي جعلناها محور هذا الحديث لنقول : إنها أصدق وأوضح دعوة إلى اجتماع الكلمة حول الله الواحد الذي لا إله غيره ، لأن اجتماع الكلمة على عبادة الله الواحد هو الضمان الأكبر للسلام والأخوة بين البشر كما قلناه .

ذلك أن أهل الكتاب جميعاً يقولون إنهم يعبدون الله ولا يشركون به شيئاً وما قرأت لنصراني أو يهودي على أي مذهب من مذاهب هاتين الديانتين إلا وهو يؤكد ذلك ، ولكن النصارى جميعاً لا يمكن أن يتخلوا عن القول بالثالوث في أي صورة من صوره ، ولا ذكر لعقيدة الثالوث في الأناجيل أو في العهد القديم ، إنما هو الله الواحد ، والمسيح كلمته التي ألقاها في مريم بنت عمران فحملت بعيسى ، كما يقر الله سبحانه كل إنسان في رحم أمه ، وفي الآية السادسة من سورة آل عمران نقرأ : ﴿ هُوَ الَّذِي يُصَوِّرُكُمْ فِي الْأَرْحَامِ كَيْفَ يَشَاءُ . لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴾ وليس في الإنجيل فيما يتعلق بعيسى ابن مريم إلا هذا المعنى القرآني ، وعيسى ابن مريم لم يقل قط إلا أنه رسول الله إلى البشر ، وعبارة « أبى » التي ترد على لسانه في الأناجيل لا تعنى بالضرورة البنوة المباشرة ، بل إن المسيح عيسى ابن مريم يقول في خطبة الجبل وفي كل حديثه إلى الإسرائيليين : إن إلهنا واحد ، ولكننا لا ينبغي أن ننسى أن المسيح

بعث في عصر اختلاف عقائدى شديد ، وكانت الآراء الفلسفية التى قال بها فلاسفة الفكر الهيلينستى وخاصة فى الإسكندرية تملأ الجو وتلقى الشكوك فى القلوب . وقد قرر اثنان من أشهر أساتذة تاريخ الأديان هما أدولف فون هارناك Adolph Von Harnach و F.C. Baur فريدريش باور أن القول بالثالوث كان ثمرة تأثر الفكر المسيحى بالفكر الهيلنى ، لأن القول بالثالوث أو ثلثية المعبود نشأ فى مصر القديمة ، ولقى قبولاً فى الكثير من عقائد العصور القديمة والعصر الهيلينستى Schleiermacher ويذهب فريدريش شلايرمانه Friedrich Sxhlaiermacher أن عقيدة الثالوث نشأت عن محاولة للتوفيق بين المسيحية والآراء الشائعة خلال القرنين المسيحين الأولين ، وفى أيامنا هذه يرجع تمسك الكنائس البروتستانتية بالقول بالثالوث إلى اجتهادات كارل بارث Carl Barth وسلطاناه الواسع على الفكر البروتستانتى فى عصرنا ، أما بالنسبة للكنيسة المصرية فإن القول الفصل فى الثالوث تحدد بها تقرر فى مجمع نيقية سنة ٣٢٥ ميلادية من أنه لا بد أن تكون هناك علاقة بنوة بين الله والمسيح عيسى بن مريم لأن الابن - كما قالو - ينبغى أن يكون من طبيعة الأب ، والأب فى هذه الحالة هو الله ، وهذا هو القول الذى ثبت عليه الانبا اثناسيوس واضع أسس العقيدة المسيحية على المذهب القبطى القائم على القول بوحدانية الله مع عدم إنكار البنوة فى حين تأثرت العقيدة الكاثوليكية بأراء لاهوتيين من أمثال باسيل وجريجورى النازيانسى ، ولهذا فإن للكاثوليكية عقيدة فى الثالوث تختلف اختلافاً بيناً عن قول الكنيسة القبطية فيها ، وهذا الخلاف هو الذى أدى إلى طرد الأقباط المصريين من مجمع فلقيدونية سنة ٤٢٥ م ، وهو مجمع مخرب ، فرق المسيحيين أحزاباً ، وأقباط مصر يسمونه مجمع اللصوص .

وهذه آراء أذكرها لا لكى أشكك مسيحياً فى مسيحيته ، ولا لكى أفتح الطريق أمام مسلم لكى يقول فى دين آخر شيئاً لا يليق ، فقد سبق أن قلت إن

شأن الإنسان مع دينه شأن وراثه ، فنحن نرث أدياننا كما نرث لغاتنا عن ابائنا ، ثم نتمسك بعقائدنا التي ورثناها تمسكنا بأصولنا التي نفخر بها ، ولا فضل لنا في هذه الوراثة ، ونحن نصر على أن تراثنا هذا هو أساس شخصياتنا ولباب وجودنا فكيف نتحول عنه ، ولا يحدث إلا في القليل النادر جداً أن يبلغ إنسان منا سن الرشد فيقول : الآن إدريس الأديان جميعاً لكى أختار لى الدين الذى أرى أنه الحق فليطمئن أصحابنا الذين يغالون فى حماسهم الدينية ويزعمون أن لهم فضلاً فى إيمانهم بالإسلام مثلاً ، وكل الذى نطالبهم به هو أن يكونوا مسلمين صالحين ، أو يكونوا على خير ما يكون عليه المسلم ، وهذا هو مايقوله الله سبحانه وتعالى فى الآيات التى جعلناها محوراً لهذا الفصل :

﴿ قل يا أهل الكتاب تعالوا إلى كلمة سواء بيننا وبينكم ألا نعبد إلا الله ولا نشرك به شيئاً ولا يتخذ بعضنا بعضاً أرباباً من دون الله فإن تولوا فقولوا : أشهدوا باننا مسلمون ﴾ .

أجل ! إذا لم يسمعوا لك فكل ما عليك هو أن تشهد الناس على أنك مسلم وهنا ينتهى واجبك بحسب مايقره القرآن ، ولنلاحظ هنا أن الكلام موجه إلى أهل الكتاب ، أى النصارى واليهود ، لأن للإسلام موقفاً آخر من الكفرة عباد الأوثان - فإذا تطرق مسلم إلى ما وراء ذلك فى حديثه مع أهل الكتاب فقد تجاوز حده الذى رسمه الله تعالى له فى هذه الآيات ، وبودى لو قرأ كلامى هذا بعض شبابنا ممن لم يتلقوا ثقافة إسلامية صحيحة ، فيحسبون أن الإسراف فى الحماسة والتعدى على أصحاب الديانات الأخرى من أهل الكتاب فضيلة إسلامية ، وهو فى خروج على مارسم لنا القرآن ، فإن قوة العقيدة الإسلامية تأتى دائماً من منطقيتها ومن أخلاقياتها ، فنحن مطالبون بأن ندعوا لدينا بالحكمة والموعظة الحسنة ، لا بالعنف والغلظة ومظهر التدين الخارجى من هيئة وملبس أو جهامة أو عناد وأولى بنا أن نذكر دائماً أن الإسلام واضح بين ، وما إلى ذلك مما يمكن أن

يخدع الناس ، ولكنه لا يجوز على الله سبحانه ، وأولى بنا أن نذكر دائماً أن الإسلام واضح بين ، وأن كل ما علينا حياله - إن كنا نؤمن به حقاً - هو أن نتخلق بأخلاقه ، ونتبع ما يأمر به من سلامة النية والطوية وحب الخير للناس والبعد عن الأنانية ومخالفة الناس بخلق حسن ، كما كان رسول الله ﷺ يعمل حتى نكون نحن خير دعاية للإسلام ، ونعرف الناس بديننا بهذه الطريقة وندعهم وشأنهم ، فإن الهدى هدى الله وهو سبحانه أدرى بعبدته ، ولا يذكر التاريخ حالة تعصب ديني واحدة أدت إلى خير أو خدمت المتعصبين أو عقيدتهم .

ثم تتجه الآيات القرآنية من سورة آل عمران التي نتابع دراستها الآن إلى أصول عبادة الله الواحدة ، وهي عند إبراهيم عليه السلام أبي الأنبياء ، فهو أول من قال بعقيدة التوحيد الخالص بعد نوح عليه السلام ، وقد قال به في كلام صريح واضح لا يداخله شك :

﴿ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لِمَ تَحَاجُّونَ فِي إِبْرَاهِيمَ وَمَا أُنزِلَتِ التَّوْرَةُ وَالْإِنْجِيلُ إِلَّا مِنْ بَعْدِهِ ، أَفَلَا تَعْقِلُونَ . هَا أَنْتُمْ هَؤُلَاءِ حَاجَجْتُمْ فِيمَا لَكُمْ بِهِ عِلْمٌ فَلِمَ تُحَاجُّونَ فِيمَا لَيْسَ لَكُمْ بِهِ عِلْمٌ ، وَاللَّهُ يُعَلِّمُ مَنْ يَشَاءُ وَلَنْ تَعْلَمُونَ . مَا كَانَ إِبْرَاهِيمُ يَهُودِيًّا وَلَا نَصْرَانِيًّا وَلَكِنْ كَانَ حَنِيفًا مُسْلِمًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ . إِنْ أَوْلَى النَّاسِ بِإِبْرَاهِيمَ لِلَّذِينَ اتَّبَعُوهُ وَهَذَا النَّبِيُّ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَاللَّهُ وَلِيُّ الْمُؤْمِنِينَ ﴾ [آل عمران ٣ / ٦٥ - ٦٨] .

وهذه الآيات تعطينا مثالا مما كان رسول الله ﷺ يلقاه من عنف أهل الكتاب ، وما كانوا يواجهون به الرسول من مزاعم لا تقوم على علم أو فهم حقيقي ، وهنا يعيننا الحافظ ابن كثير في تفسيره لمعرفة الظروف التي أوجبت فيها هذه الآيات إلى رسول الله ، وهي ظروف يمكن أن يلقاها أى مسلم فيستعين بها على ما يواجهه به ، ولقد قرأت من كلام بعض غلاة المستشرقين في تعرضهم للإسلام كلاماً كثيراً في هذا المعنى وخاصة اليهود منهم من أمثال إبراهيم جايجر

Abraham geuger وهو روفيتز Horovitz و هـ . هير شفيدل H. Herschfeld و A.J. Winsinck وتعجبت من تحملهم على الإسلام دون روية ، وعذرت اليهود منهم في هذا البغض للإسلام لأنه بغض تقليدي لا يرجع إلى نزاعنا معهم حول فلسطين ، ومن أمثلة ذلك أن أشد حملات اليهود على الإسلام تجدها في دائرة المعارف اليهودية The Jewish Enyclopedia طبعة ١٩٠٦ ، وكل موادها أعدت قبل ذلك بسنوات ، ولم تكن بيننا وبين اليهود في ذلك الحين أى عداوة ، ولكنها شىء غريب مركب في طبعهم ، وقرأ فيها مواد : محمد وإسلام ومكة والمدينة والعرب وتعجب من عنف الهجوم والافتراء دون مبرر .

ولكنى كما قلت لك تعجبت من عنف رجل مسيحي هولندي هو فانسينك Wensinck في نقد الإسلام وعبادة رسوله ، ولم أجد قط ما يدعوه إلى الرد عليه ، لأنك ترد على شىء منطقي بمنطق مثله ، ولكنك لا تدرى كيف ترد على شىء عاطفي إلا بالأسلوب الذى أمرنا الله به وهو إهماله ، لأنه لغو أو الدعوة بالحكمة والموعظة الحسنة وأحياناً تجد الحملة على الإسلام ترجع إلى أسباب سياسية ، كما تجد عند الكونت ليونى كاتيانى Leona Caeteni وخاصة في كتابه المسمى بحوليات الإسلام Annali dell Islam فقد كتبه الرجل بينما كانت إيطاليا قد استولت على ليبيا ، ومضت تحاول تحويلها إلى بلد مسيحي ، فكتب هو يهاجم الإسلام ويهون أمره ، وقد انتهت المعركة السياسية بانتصار الإسلام نصراً مؤزراً على أيدي السنوسيين الذين اجتهدوا في الدعوة ومدوا رواق الإسلام على كل وسط الصحراء الكبرى وإقليم تشاد ، وما دام الإسلام قد رد عليه أبلغ رد فقد انتهينا من أمر كاتيانى وأمثاله .

وينفعنا في فهم هذه الآيات المؤرخ المحدث ابن كثير ، فهو يقول هنا - راوياً بسنده إلى ابن عباس - اجتمعت نصارى نجران وأخبار يهود عند رسول الله ﷺ فتنازعوا عنده ، فقالت الأخبار ما كان إبراهيم إلا يهودياً ، وقالت النصارى

ساكان إبراهيم إلا نصرانياً ، فأنزل الله على عبده هذه الآيات التى تدحض مايقولون بالحجة البالغة ، فإن التوراة والإنجيل أنزلا بعد إبراهيم فكيف يكون يهودياً أو نصرانياً ؟ ونزيد نحن كلام ابن كثير بياناً فنقول إن اليهود منسوبون إلى يهودا أو يهوفا ، وهو عندهم اسم الله الذى تصوروه وصوروه على هواهم ، فهو إلههم وحدهم دون غيرهم من أصناف البشر ، أما النصارى فمنسوبون إلى يسوع الناصرى أو المسيح ، ومن ثم فلا يمكن أن ينسب إبراهيم إلى شىء كان بعده ، أما الإسلام فهو اسم عقيدة إسلام الإنسان وجهه لله وتسليمه نفسه لمشيئته ، وهو لا ينسب إلى محمد ﷺ ونحن لا نحب أن نوصف أو نسمى بأننا محمديون Muhammedans وإنما نحن ومحمد أتباع الحق سبحانه ، وتأمل قول الله سبحانه فى الآيات التالية ، لتعرف حقيقة طريقة الإسلام فى الدعوة : ﴿ إِن أَوْلَى النَّاسِ بِإِبْرَاهِيمَ لِلَّذِينَ اتَّبَعُوهُ وَهَذَا النَّبِيُّ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَاللَّهُ وَلِيُّ الْمُؤْمِنِينَ ﴾ .

ويستوقف نظرى فى هذا المقام أننى قرأت الكثير من كلام اللاهوتيين اليهود والمسيحيين فما وجدت عندهم انتساباً حقيقياً إلى إبراهيم عليه السلام ، أما اليهود فقصاراهم التوراة والبحث عنها وعن أصولها والرجوع إلى موسى وتتبع أخباره والانتهاء بعقيدتهم عنده ، ومن غريب مايلحظ فى دراسات كتابات أخبار اليهود Tabbinical literature هو أن إبراهيم عندهم سابق على موسى ومعه له ولا زيادة ، وبعد ذلك تنتهى رسالة إبراهيم لأن الله فى رأيهم أوحى إلى موسى الألواح وهى جزء من التوراة ، ثم أكمل التوراة بما تجده عند أنبياء بنى إسرائيل سواء فى الكتابات اليهودية أو العهد القديم ، أما اللاهوتيون المسيحيون بمن فيهم الكاثوليك فجهدهم كله موجه إلى الأناجيل وما لدينا من أخبار عيسى ابن مريم ؛ لأن رسالة إبراهيم وكل الأنبياء من بعده رسالة ناقصة ، فهى الوعد والتمهيد لمجىء عيسى ابن مريم بالبشارة على الصورة التى يحكونها ،

ومن غريب ما ذكر هنا أن أُوْفَى أخبار عيسى ابن مريم نجدها في القرآن الكريم لا في الأناجيل ، لأن الأناجيل لا تقص علينا من أخبار عيسى ابن مريم إلا شهوراً وربما أسابيع فحسب ، فكلها تبدأ بأخباره منذ بدأ يدعو عند بحيرة طبرية ، وكيف بدأ الحواريون ينضمون إليه ومن غريب ما تقرأ عندهم أن عيسى ابن مريم كان يحس بقرب منيته فنقل كل ما منحه الله إياه من قوى على الإتيان بالمعجزات إلى الحواريين ، قال أحد كبار شراح إنجيل مرقس « ثم صعد - يريد المسيح عيسى ابن مريم - إلى الجبل ودعا إليه هناك الذين أرادهم ووقع عليهم اختياره من بين أتباعه الكثيرين ليكونوا تلاميذه الأحقاء الملازمين له ليؤهلهم بتعاليمه وإرشاداته ليكونوا رسلاً له وليكرسوا أنفسهم لخدمة بشرته ، فجاءوا إليه فأقام منهم لهذه الغاية اثني عشر رسولاً ، وقد منحهم سلطاناً لأن يشفوا المذمى ويطردوا الشياطين أى أنه منحهم سلطانه الذى خوله الله إياه ليستخدمه في صنع المعجزات ، فأصبحوا ممثلين له ونواباً عنه ومنفذين لمشيئته ، وقد جعل عددهم اثني عشر ليكونوا بعدد أسباط بنى إسرائيل الاثني عشر ، إذ أنه دبر حكمته أنهم في يوم الدينونة يدينون أسباط بنى إسرائيل الاثني عشر ، وكان أولئك الرسل هم سمعان الذى لقبه بطرس ، ويعقوب بن زبدي ، ويوحنا أخو يعقوب اللذين لقبهما بوا نرجس أى ابني الرعد ، لحماستهما الشديدة ، وأندراوس ، وفيلبس ، وبرقلمياوس ، ومتى ، وتوما ، ويعقوب بن حلفى ، وتداوس ، وسمعان القانونى ، ويهوذا الأسخريوطى الذى خانه فيما بعد وسلمه لأعدائه ، ثم يلي ذلك تصميم أحيار اليهود على القضاء على عيسى ابن مريم خوفاً من دعوته ومحاوله حواريه وآله وأتباعه إنقاذه من أذاهم ، ثم القبض عليه ومحاكمته والحكم بموته ثم صلبه في قولهم .

وهذا كلام لا أقوله ليستعمله المسلمون في الحجاج ، وإنما لكى يتأمله المسلمون ويقارنوه بما عندهم ، وقد يحدث أن يوفق الله أحدهم إلى الخروج

للدعوة للإسلام في بلد أفريقي أو آسيوي ، فهناك سيجد قطعاً مبشرين نصراري فيكون على علم بما عندهم ، وهذا كله يتفعه فيها هو قد رصد نفسه له من الدعوة للإسلام ، وأحب أن أذكر أولئك الإخوة إلى أن كل اليهود والنصارى متمسكون بدينهم ولا معنى لمجادلتهم فيه ، فلا يكونون همنا الإساءة إلى الناس في أعز مالديهم ، وهو أديانهم ، وكما نعتز نحن بديننا فإن غيرنا حقيق بأن يعتز بدينه ، وعلينا احترام هذا الاعتزاز ، لأن الله سبحانه إذا كان قد خلقك مسلماً فهذه نعمة لا يد لك فيها . وإنما أنت تشكرها بأن تكون على مستواها وأهلها . وإذا كان سبحانه قد خلق غيرك على غير الإسلام فإن له من وراء ذلك حكمة ، ولو شاء ربك لجعل الناس أمة واحدة ، والهدى هدى الله . وإنما هذه كلها معلومات تنفع الداعي للإسلام بين عبدة الأوثان أو عبدة الأرواح أو المجسمين من البدائين ممن يراهم على غير دين ، ولا أجد ماؤيد به كلامي في هذا المقام إلا الآيات التالية من نفس نسق آيات آل عمران التي نتابعها الآن :

﴿ وَلَا تَوَمَّنُوا إِلَّا مَنِ تَبِعَ دِينَكُمْ قُلْ إِنْ هَدَىٰ اللَّهُ فَمَا لِي بِالَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ دِينِهِ أَنْ يَتَّبِعُوا آلَاءَهُمْ أُولَٰئِكَ يَتَّبِعُوا آلَاءَهُمْ وَإِن تَوَمَّنْ يُؤْمِنِ الْإِنسَانُ إِلَّا تَوَمُّنًا بَلَىٰ أَلَا يَرَىٰ أَنَّ كِبَارَهُمْ يُعَلِّمُونَ ۚ لَوْ لَمْ يَلْمِزْهُمَ اللَّهُ لَأَفْلَاحُوا فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ لَكِن تَوَمَّنُوا وَأُكْرِمُوا وَبَدَّلُوا لِحْظَهُمْ هَبْ تَسْمَعُوا أَوْ لَا تَسْمَعُوا لَا يَفْعَلُ اللَّهُ شَيْئًا إِلَّا عَزِيمًا ۗ أَلَا يَعْلَمُ مَنْ يَخْتَصِمُ بِهِ اللَّهُ أَنَّهُ يَتَّبِعُ مَن يَشَاءُ ۗ إِنَّ اللَّهَ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ ۗ﴾

[آل عمران ٧٣ / ٣] .

وهذا هو نهج الإسلام في الكلام مع أهل الكتاب : حكمة وموعظة حسنة وطهارة في القول دون استعلاء أو غرور أو عدوان ، لأن الهدى بيد الله لا بأيدينا واللجاجة في الدين لا تؤدي إلى خير أبداً .

وعسانا لا ننسى أبداً أن الدين لله وأن الوطن للجميع ، وأن الله سبحانه إذا كان قد جعل الهدى بيديه فإنه جعل أوطاننا بين أيدينا ، فلندع ما لله لله ولنهتم بما ألزمتنا به الله ، ولنجتهد في الحفاظ على وحدة أوطاننا ، لأن أعداء هذه

الأوطان كثيرون ، والله سبحانه عندما قال لرسوله : ﴿ إِنَّكَ لَا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ ﴾ كان يريد أن يزيده بصيرة بحدود مسئوليته ، والآيات بتامها في سورة القصص وسأتلوها عليك فهي ترسم لك حدود كلامك في الدين :

﴿ وَإِذَا يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ قَالُوا آمَنَّا بِهِ إِنَّهُ الْحَقُّ مِنْ رَبِّنَا إِنَّا كُنَّا مِنْ قَبْلِهِ مُسْلِمِينَ . أُولَٰئِكَ يُؤْتَوْنَ أَجْرَهُمْ مَرَّتَيْنِ بِمَا صَبَرُوا وَيَدْرَءُونَ بِالْحَسَنَةِ السَّيِّئَةَ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُونَ . وَإِذَا سَمِعُوا اللَّغْوَ أَعْرَضُوا عَنْهُ وَقَالُوا لَنَا أَعْمَالُنَا وَلَكُمْ أَعْمَالُكُمْ سَلَامٌ عَلَيْكُمْ لَا نَبْتَغِي الْجَاهِلِينَ . إِنَّكَ لَا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ ﴾ .
[القصص ٢٨ / ٥٣ - ٥٦] .

وهذه الآيات الكريمة ترسم لك المنهج الذي ينبغي عليك اتباعه فتأملها ملياً واعمل بها ، ولا تأخذنك الجاهلية فتتخطى حدودك وتظلم نفسك ودينك ووطنك ، واذكر أنك إذا استطعت أن تكون مسلماً صحيح الإيمان والطوية ، سليم دواعي الصدر ، خالص النية لله ، كافأ عن الناس أذاك ، فهذا حسبك ، وليتنا كلنا كنا كذلك إذن لكننا في حال غير الحال .
